مقدمة

باسم الله وعلى هدى من نوره وتوفيقه نقدم هذه الدراسة فى التاريخ الأوربى الحديث والمعاصر منذ عصر النهضة وحتى عصر البيروسترويكا ، والوحدة الألمانية .

وغنى عن البيان أن هذه الفترة الممتدة من القرن السادس عشر وحتى نهاية القرن العشرين قد حفلت بأحداث هامة فى تاريخ البشرية ، وحققت تقدما هائلا فى حقول الفكر والاستكشاف وانتصار العقل والتنوير على التقليد والتوكيد . ولما كان التاريخ الأوربى الحديث والمعاصر لا يزال يحتل مكانا بارزا فى المناهج الدراسية باقسام التاريخ فى الجامعات المصرية والعربية فقد سايرنا فى هذه الدراسة خطط هذه الجامعات حتى تكون مرجعا أساسيا لطلابنا يمكن عن طريقها الاستغناء عما كتبه غير المبرئين من عوامل التعصب أو الاستعلاء . ورجاؤنا أن تحقق هذه الدراسة الهدف منها .

سدد الله خطانا ، ووفقنا الى تحقيق غاياتنا انه سبحانه وتعالى ولى التوفيق .

د. عبد المنعم الجميعى

أبها فى ٢٨ رمضان ١٤١١ هـ

١٣ ابريل ١٩٩١ م

تمهيد

المدخل الى التـاريخ الأوربى الحديث

ان تقسيم التاريخ الى عصور ، لا يعنى تجزئة الأحداث التاريخية او فصل بعضها عن بعض بقدر ما يعنى التعمق فى دراسة هذه الأحـداث ، ودراستها بطريقة أكثر تخصصا ودقة .

واذا كان الاتفاق قد تم بين علماء التاريخ فى العصر الحـديث على تقسيم التاريخ الى عصور قديمة ، ووسيطة ، وحديثة ثم أضافوا اليه الفترة المعاصرة ، فليس معنى ذلك أن هذه التقسيمات حتمية بل هى اجتهادية ، ومن هنا فالآراء تختلف حول التحديد الدقيق لها ، وأحيانا تتشابك فى تحديد الخط الفاصل بين عصر وآخر ، وقد شبه أحد المؤرخين (١) عملية انتقال العصور بمراحل نمو الانسان وانتقالها من مرحلة لأخرى ، فاذا كان يصعب على العلم الحديث بكل وسائله التقنية والعلمية أن يحدد لنا ساعة معينة أو يوما يعنيه لانتقال الانسان مثلا من مرحلة المراهقة الى مرحلة الشباب فمرحلة الرجولة والشيخوخة اذ ان كل مرحلة من هذه المراحل تتصل نهايتها ببداية المرحلة التابعة لها وتنساب فيها حتى تبرز سـمات جديـدة على الانسان وحتى نقترب من هذه الرؤية أكثر يجب أن نوضح ما هو المقصود بالعصر التاريخى ؟

المقصود بالعصر التاريخى هو الحقبة الزمنية التى تتفق فيها اسس الحياة أو تتشابه ، وان اختلفت فان الخلاف بينها يكون بسيطا .

---

(١) ــ انظر عبد العزيز الشناوى : أوربا فى مطلع العصور الحديثة .

ومن هنا فليس من السهل تحديد الخط الفاصل بين العصور الوسطى والعصور الحديثة خاصة وأن الانتقال من عصر الى آخر يحتاج دائما الى تمهيد طويل قد يستغرق فترات غير محدودة تتداخل خلالها الأمور وقد تختلط ببعضها فتمتد جذور عصر من العصور فى أعماق العصر الذى سبقه لدرجة يصعب معها تحديد تاريخ محدد نثبت به ميلاد عصر ونهاية عصر آخر .

ومع ذلك فانه يمكننا القول بأن حدوث تغيرات جذرية ومؤثرة فى حياة البشر تؤثر فى شئونهم الداخلية وعلاقاتهم الخارجية ، وتتغير بسببها ظروفهم السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية أو الاجتماعية هى بداية عصر ونهاية آخر .

ونتيجة لتفاوت هذه التغيرات من حيث قيمتها وتأثيرها فقد اختلف المؤرخون فى تحديد حدث معين يمكن القول عنه انه بداية الانتقال من العصور الوسطى الى العصور الحديثة ، وان كان قد اتفق معظمهم على أن فترة الانتقال يمكن تحديدها زمنيا بقرن ونصف من منتصف القرن الرابع عشر الى القرن السادس عشر وفيما يلى تعرض للآراء التى قيلت فى هذا الموضوع :

١ — يرى بعض المؤرخين أن رحلة كريستوف كولومب الأولى الى العالم الجديد عام ١٤٩٢ م هى بداية العصر الأوربى الحديث ، ويدللون على وجاهة رايهم أن هذا الاكتشاف قد أدى الى نمو النشاط التجارى فى أوربا ، وظهور العديد من طرق التجارة العالمية التى لم تكن معروفة من قبل للأوربيين . وتدفق المعادن النفيسة واكتشاف المناجم الغنية بكنوز الأرض والاستحواذ عليها والتعرف على الحاصلات الجديدة فى أمريكا ونشرها بين قارات العالم الأخرى كما انه حطم الفكرة التى كانت تروجها الكنيسة بأن المنطقة التى تجاوز حدود أوربا من ناحية البحر وحدود أفريقيا الشمالية هى بمثابة مأوى للشياطين وتحذر من مخاطر اقتحامها .

٢ — يرى البعض أن سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م هو بداية التاريخ الأوربى الحديث ويستندون فى ذلك

الى أن هذا الحادث وما ترتب عليه من هجرة العديد من العلماء من القسطنطينية الى أوربا ، ومعهم علومهم ومخطوطاتهم النادرة وكتبهم القيمة وتدريسها فى مدارس أوربا واحيائهم للتراث اليونانى والرومانى بها قد ساعد على بزوغ عصر جديد فى أوربا ، والى الانكباب على هذه الحركة العلمية والاهتمام بعلوم الانسان وظهور طائفة الانسانيين .

وقد يكون ردنا على هؤلاء ان حركة بعث واحياء هذا التراث كانت قد بدأت فعلا فى ايطاليا قبل أكثر من قرن من سقوط القسطنطينية ، ولم يكن سقوط القسطنطينية سوى استمرار لهذا العصر ، يضاف الى ذلك أن ايطاليا كانت خصبة بمفكريها قبل سقوط القسطنطينية اذ برز فيها جمع من هؤلاء فى القرن الثالث عشر منهم « دانتى » الشاعر الايطالى الذى نشأ فى مدينة فلورنسا و « نيقولا دى ريترو » الذى أراد فى القرن الرابع عشر أن يعود بروما الى سالف مجدها فى عصر الرومان .

٣ — هناك من يقول ان التاريخ الأوربى الحديث يبدأ بسقوط الأندلس . ذلك الحادث التاريخى الذى كان بمثابة نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الأوربيين حيث قام « فرديناند » حاكم أرجونة و « ايزابيلا » حاكمة قشتالة باستئناف اخر المعاقل الاسلامية هناك فى عام ١٤٩٢ م واجبار المسلمين على التنصير أو الفرار ، وتشجيع البابوية للأسبان والبرتغاليين بالضغط على المسلمين فى الشمال الافريقى ومحاولة نشر المسيحية بينهم بالقوة والقضاء على الهوية الاسلامية هناك .

٤ — من المؤرخين من يذكر أن تاريخ أوربا الحديث يبدأ بالكشوف الجغرافية التى أظهرت حب الأوربيين للمغامرة وزادت من معلوماتهم الجغرافية حول كروية الأرض وتمكنهم من السيطرة على زمام الأمور البحرية فى البلاد الشرقية واحتكارهم لتجارتهم ، ووصولهم الى الهند بلاد التوابل عن طريق جديد ليس فيه من يطالبهم بدفع رسوم أو مكوس وهو طريق رأس الرجاء الصالح ، هذا الى جانب تمكن الأوربيين من تحويل طرق التجارة العالمية من البحر المتوسط الى المحيط الاطلسى .

٥ — يرى بعض آخر أن النزاع بين فرنسا واسبانيا على التوسع

فى شبه الجزيرة الايطالية ، وادعاء كل منها لحق وراثة العرش فيها ثم قيام التنازع بين الوحدات السياســـية فى ايطاليا بسبب التنافس بينها ، والتجاء بعضها لفرنسا والبعض الآخر لأسبانيا ، ورغبة كل من الدولتين فى تحقيق اطماعها الاستعمارية على حساب ايطاليا ، وقيام الحروب بينهما يمكن اعتباره بداية التاريخ الأوربى الحديث .

وعلى الرغم من الأسانيد التى اثبتها هؤلاء المؤرخون لترجيح آرائهم حول هذا الموضوع فانه يمكن القول أن عصر النهضة Renaissance أو ما يسمى بحركة البعث الجديد الذى حدث فيه العديد من التغـــيرات الجديدة والأحداث التاريخية المهمة فى حياة ابناء القارة الأوربية فى النواحى الأدبية والفنية والعلمية والسياسية هو الذى يمكن اعتباره البداية الحقيقية للتاريخ الأوربى الحديث ففى هذا العصر انقلبت الموازين فى أوربا العصور الوسطى تماما فبعد أن كانت الكنيسة هى وحدها المسيطرة على مقدرات أمور الثقافة والتعليم فى أوربا ، حيث تتقيد المدارس والجامعات بما تمليه عليها أفكار الكنيسة دب الضعف فى الكنيسة نتيجة لاستمرار صراعها مع الامبراطورية واتسعت دائرة المعارف والعلوم الانسانية ، وتحررت العقول وبرزت شخصية الفرد ، فبعد أن كانت الحركة العلمية والفنية تقتصر على جدران القصور فى منتديات الأمراء انتج الفنانـــون روائعهم الهائلة التى تصورون فيها الطبيعة وما فيها من سحر خلاب ، وبدأت الجامعات تدلو بدلوها فى هذا المجال فساهمت فى بعث التراث القديم واذكاء الحركة العلمية والادبية بوجه عام ، فأخذت روح النقد فى النمو ، وبدأ المثقفون ينتقـدون الكنيسة وآراءها .

واخذ الأدباء يخرجون عن التقاليد السابقة فعبروا عن خفايا النفس البشرية وما فيها من أحاسيس بعد أن كانوا يحصرون أفكارهم داخل نطاق العقيدة فتحدثوا عن الحب والغزل والمرأة وبدأ النزوع الى التفكير الحـــر أو ما يطلق عليه الروح الفردية Individualism وهى ابتعاد الفرد عن التقيد بكل مايرتضيه ويعتقده وأصبح الفرد لا يعتنق الا ما يتفق مع فهمه وفكره وظهرت مفاهيم وآراء جديدة وصل ببعضها الأمر الى اعلان العصيان على آراء الكنيسة والدعوة الى تغييرها فقام ارنولدو بالدعوة

الى اصلاح الكنيسة والاعتراض عن أملاك رجال الدين وملابسهم الفاخرة ونادى باقامة حكومة حرة مستقلة عن سلطات الكنيسة .

وقام يواكيمو بحركة دينية فى جنوب ايطاليا حذر فيها العالم المسيحى مما ينتظره عن أيام سوداء نتجة لمفاسد الكنيسة ومعايبها .

كما هاجم الراهب « سافونا رولا » فى اسلوب يفيض بالحماسة الدينية والفصاحة والعنف رجال الكنيسة وعلى رأسهم البابا ، ودعا الى السير على تعاليم المسيحية الصحيحة والاستمساك بالفضيلة ، وترك حياة الفسق والمجون التى يحياها البابا « اسكندر السادس » ، بقوله « ان الدين لم يكسب من أباطيل الحياة الزائفة كالحياة والمباهج سوى قتل العقيدة الخالصة ، وان الكنيسة نفسها هى المسئولة لتأثرها وخضوعها لمادية العصر » كما أعلن عن سخطه على رجال الدين الذين أصبحوا رمزا للكسل الطفيلى الذى يعيش على مجهود غيره وطالب تلاميذه بدراسة الكتاب المقدس والتعليق عليه . وقد استطاع سافونا رولا أن يجد السبيل الى قلوب سامعيه ، فكان أهل فلورنسا يتقاطرون على مواعظه ، وكانت كلماته تؤثر فيهم فيذرفون الدمع غزيرا ومن الكتب الدينية التى كتبها سافونا رولا « رسالة عن التواضع » و « رسالة عن الصلاة » و « رسالة عن حب يسوع المسبح » و « رسالة عن حياة الأرامل » ونتيجة لهجوم سافونا رولا على البابوية أصدر البابا فى ١٣ من مايو عام ١٤٩٧ قرار الحرمان ضده متهما اياه بنشر عقائد فاسدة بين الناس وعدم اطاعته لأوامره .

وعلى الرغم من ذلك فان سافونا رولا لم يعبأ بهذا القرار وكتب رسالة فند فيها بطلانه واعلن ضرورة مقاومة سلطة البابا الذى يعمل ضده تعاليم الكنيسة ، والذى وصل الى كرسى البابوية عن طريق الرشوة .

وعلى الرغم من وساطة البعض للعفو عن سافونا رولا والدفاع عنه فى رسالة خاصة أرسلوها الى البابا فان البابا أصر على تسليم الراهب الثائر اليه .

وبعد مشاورات ومداولات تمكن أعداء سافونا رولا من تقديمه الى المحاكمة ، واعلان اعدامه شنقا مع حرق جثته ، وقد تم ذلك بالفعل فى

٢٣ من مايو عام ١٤٩٨ م وعلى الرغم من تخلص البابا وانصاره من سافونا رولا فان حركته ظلت رمزا يحمل معنى الاصلاح الدينى فى أوربا الى أن ظهر مارتن لوثر بدعوته الاصلاحية فى المانيا ، كما أن مهاجمته للبابا وللمفاسد التى ترتكب باسم المسيحية قد أسهم فى تحطيم الزعامة البابوية للكنائس الأوربية .

أما عن مارتن لوثر فقد قاد الثورة ضد الكنيسة فى المانيا ، كما قادها كلفن فى سويسرا وفرنسا ، وانفصلت كنيسة انجلترا عن روما ، وقامت الحروب الدينية بين اتباع الكاثوليكية والبروتستانتية .

والى جانب ذلك فبعد أن كانت اللغة اللاتينية هى لغة العلوم والآداب فى أوربا ، ومن يجهلها لا يستطيع مسايرة هذه العلوم نافستها اللغات القومية وتغلبت عليها وصرعتها ، حتى اقتصرت على جماعة معينة من رجال الكنيسة، وأصبحت اللغات القومية هى لغة التخاطب ثم لغة الثقافة والأدب ، واستقرت هذه اللغات كأداة للتعبير عن كافة الحاجات والمشاعر الانسانية .

وبعد أن كانت طرق التجارة بين الشرق والغرب تقتصر على تحكم دول البحر المتوسط فيها نجحت رحلات البرتغاليين البحرية فى الالتفاف حول افريقيا واكتشاف طريق راس الرجاء الصالح ، وتحويل التجارة الى الدول المطلة على المحيط الاطلسى ، وانشاء الشركات التجارية وتأسيس المصارف والبنوك ، وربط آسيا بأوربا عن طريق مائى جديد مما ساعد فى السيطرة على تجارة الشرق .

وبعد أن كانت الكشوف العلمية تتقيد بأفكار الكنيسة وآرائها أصبحت حدود العلم لا تقف عند حد فاكتشفت كروية الارض كما اكتشفت مجموعات جديدة من الكواكب الفلكية وأمكن التعرف على معلومات جديدة عن النبات وعلم التشريح والأرض وما فى باطنها والبحار وما فيها من ثروات يضاف الى ذلك أنه نتيجة لظهور المكتشفات العلمية عرفت الطباعة التى ساعدت على انتشار العلوم والآداب ، ونشر آثار العصور الوسطى مع تراث العصور القديمة وثقافة عصر النهضة .

ومن المعالم الجديدة ايضا كان تغيير هيكل المجتمع الاوربى من النظام الاقطاعى Feudal System الذى كان مسيطرا على حياة المجتمع الاوربى الى ظهور الطبقة الوسطى ونشأة المدن ، ومنافسة التجارة والصناعة للزراعة مما أدى الى ايجاد حالة من التوازن بين أفراد المجتمع .

يضاف الى ذلك انه بعد أن كان الأباطرة يسيطرون على مصائر الشعوب نمت الاتجاهات القومية National state ونشأت الدول التى تأسست بناء على مقومات موضوعية من أهمها طبيعة السكان وظروف بيئتهم وعلاقتهم الاجتماعية ، واتحادهم فى لغة أو ثقافة معينة ، وكانت انجلترا وفرنسا واسبانيا من أسبق الوحدات السياسية فى الظهور على حين تأخرت المانيا فى تحقيق وحدتها القومية حتى القرن التاسع عشر .

والسؤال الذى يطرح نفسه هو هل نبتت النهضة الأوربية من فراغ او أن هناك عوامل أثرت فى قيام وتشكيل هذه النهضة ؟

الواقع أن رجال عصر النهضة لم يتخلوا عن تراثهم سواء اكان القديم ام الوسيط فقد اهتموا بدراسة التراث اليونانى واللاتينى وقاموا بمحاكاته والتعليق عليه ومقارنة بعضه بالآخر ثم استلهموا منه الروح الحديثة واتخذوا منه نماذج قاموا بمحاكاتها رغبة منهم فى الوصول الى المزيد من الحقيقة والمعرفة .

يضاف الى ذلك أنهم استفادوا من الحضارة العربية الاسلامية التى زحفت على أوربا منذ أواخر القرن الحادى عشر واقتبسوا منها واضافوا اليها ايضا .

وربما تساءل البعض من أين وصلت الحضارة العربية الاسلامية الى هؤلاء ؟

الواقع أن هناك عدة محاور نفذت منها الحضارة العربية الاسلامية الى أوربا نذكر منها :

١ — شبه جزيرة ايبريا حيث حكم العرب هذه المنطقة حوالى ثمانية قرون من عام ٧٣٢ الى عام ١٤٩٢ م وكانت خلال هذه الفترة مركزا لامعا

للحضارة والعلوم والفنون مما دفع طلاب العلم من غرب أوربا للرحيل اليها والارتشاف من مناهل حضارة المسلمين هناك .

٢ — أدى فتح العرب صقلية عام ٨٧٨ ونشرهم للحضارة الاسلامية فيها ان نقل عنهم الأوربيون الكثير من علومهم وفنونهم ، وأبرز الأدلة على ذلك أن « ريقولا بيزانو » أول رواد النهضة قد استمد مبادئه من مملكة صقلية ذات الطابع العربى .

٣ — الحروب الصليبية بين الشرق والغرب ، والتى ساعدت على انتقال العديد من الأوربيين الى بلاد الشرق والكتابة عما شاهدوه فى هذه البلاد ، واقتباسهم للتأثيرات الفنية الاسلامية ونقلها الى بلادهم .

٤ — فتح القسطنطينية وما أعقبه من وفود العديد من الأوربيين الى هذه المدينة التى كانت تذخر بالتراثين البيزنطى والاسلامى ، ومحاولتهم احياء هذا التراث وجمع ما تبعثر منه .

٥ — قدوم بعض الطلاب الأوربيين الى بلدان العالم الاسلامى للدراسة فى جامعاتها مثل الأزهر فى القاهرة والمدرسة المستنصرية فى بغداد .

٦ — ارتياد عدد من الرحالة الايطاليين لبعض مناطق العالم القديم فعلى سبيل المثال نجد الرحالة البندقى ماركو بولو يقوم برحلة الى آسيا ويزور بلاد الصين ويكتب مشاهداته عنها مما فتح أذهان الايطاليين تجاه تلك الأصقاع والحضارة الموجودة بها .

٧ — انتقال التحف الاسلامية وتقاليد الفنون والصنائع الاسلامية الى أوربا عن طريق الأوربيين الذين كانوا يسافرون للحج الى بيت المقدس ، وكانت تتاح لهم بذلك الفرصة للتعرف على أنواع الصناعات والفنون الاسلامية ، كما كانوا يحملون معهم ايضا عند رجوعهم الى أوطانهم كثيرا من التحف الفنية الاسلامية أحيانا بدافع الاعجاب بجودة صناعتها وحسن زخارفها ، وأحيانا أخرى باعتبارها تراثا مباركا من الأراضى المقدسة .

٨ — العلاقات التجارية بين أوربا والشرق الاسلامى كانت ذات أثر

كبير فى اقتباس المظاهر الفنية الاسلامية . ولقد قامت المدن الايطالية بدور كبير فى هذا المجال اذا كان التجار الايطاليون يحملون المتاجر الاسلامية الى أوربا ، وكانت هذه المتاجر تشتمل على مختلف التحف الفنية الاسلامية ، مثل المنسوجات الحريرية المطرزة بالرسوم الجميلة والزخارف العربية ، والأدوات النحاسية المكفتة بالذهب والفضة وأوانى الخزف والزجاج والبلور الصخرى والمخطوطات الاسلامية المزوقة بالتصاوير وغير ذلك من منتجات الفنون الاسلامية المزينة بالزخارف المختلفة من صور وكتابات وحليات هندسية ونباتية وحيوانية (١) .

ومما سبق يمكن القول أن تاريخ أوربا الحديث بمقدماته السياسية والروحية قد بدأ فى ايطاليا ثم انتقل منها الى باقى دول أوربا وأن فترة الانتقال من العصور الوسطى الى العصور الحديثة وهى ما يطلق عليها فى أوربا باسم « عصر النهضة الأوربية » كانت نقطة تحول أحدثت ثورة فى شتى مناحى الحياة فى أوربا . بسبب التغيرات الجوهرية التى أحدثتها فى تاريخ الحضارة البشرية والتى قامت عليها المدنية الحديثة .

---

(١) حسن الباشا : تاريخ الفن فى عصر النهضة ، ص ٣٢ .